فى سنوات الحرب

كتاب المساكين ...

كان الرافعى — رحمه الله — شاعر النفس ، مرهف الحس ، رقيق القلب ، قوى العاطفة : يرى المنظر الأليم فتنفعل به نفسه ويتحرك خاطره ويتفطر قلبه ؛ وتقص عليه نبأ الفاجعة فلا تلبث وأنت تحكى له أن تلمح فى عينيه بريق الدمع يحبسه الحياء . ولقد كان الرافعى يقرأ فيما يرد إليه من بريد قرائه كثيراً من المآسى الفاجعة يسأله أصحابها الرأى أو المعونة ، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلاماً مكتوباً ، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها، فما تبرح ذاكرته من بعد إلا مع الزمن الطويل.

ولقد وقعت الحرب واستعرت نارها فى الميادين البعيدة لا يبلغ إلينا منها نار ولا دخان ولا يراق دم ، ولكنها أرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء ، فما كان ضحاياها فى مصر بالجوع والمتربة أقل عديداً من ضحاياها هناك فى الميدان .. كيف كان يعيش العامل المسكين فى تلك الأيام ؟ رباه ! إننى ما أزال أذكر يوم أرسلنى والدى — وأنا غلام بعد — أستدعى النجار لعمل عندنا ، فوجدته جالساً فى أهله يأكلون : كانوا ستة قد تحلّقوا حول قصعة سوداء فيها كومة من فتات الخبز إدامه الماء ، تتسابق أيديهم إليه فى نهم كأنما يخشى كل واحد أن تعود يده إلى القصعة بعد الأوان فلا يجد اللقمة الثانية ...!

هكذا كان يعيش نصف الشعب فى تلك الأيام السود مما فعل القحط والغلاء ، لأن أقوات الشعب قد حُملت إلى الميدان لتخزن فى دار المؤن وقتاً ما ، لتقذفها من بعد قنابل المحاربين وتذروها رماداً فى الهواء ...!

ونظر الرافعى حواليه فارتد إليه البصر حسيراً مما يرى ويسمع ، فاحتبس الدمع فى عينيه ولكن قلبه ظل يتحدث بمعانيه .

ومضى عام وعام والحرب ما تزال مستعرة ، والبؤس تتعدد ألوانه ، وتتشكل صوره ، وتحشد آثاره ؛ والرافعى دائم الحديث إلى نفسه وهو يحمل من هم الشعب فى قلبه الكبير ، حتى امتلأ الإناء يوماً ففاض ...

* * *

فى بعض اللحظات التى تفيض فيها النفس بالألم ، يحس الإنسان كأنه شىء له فى نظام الكون إرادة وتدبير ، وأن من حقه أن يقول للمقدور : لماذا أنت فى طريقى ... ؟ فتراه فى بعض نجواه يتساءل : ربِّ ، لِمَ كتبت علىّ هذا ... ؟ لماذا حكمت بذلك ... ؟ لماذا قدّرت وقضيت ... ؟ ما حكمتك فيما كان ... ؟ ألم يكن خيراً لو كان ما لم يكن ... ؟ ثم يثوب إلى نفسه ويفىء إلى الحق ، فيعود معتذراً يقول : رب ، لقد ظهر حُكمك ، ودقت حكمتك فمغفرة وعفواً ... !

وتظل حكمة الله مطوية فى ظلمات الغيب ، لا يتنوّرها إلا من غمره شعاع الإيمان وسطع فى قلبه نور الحكمة ؛ أما الذين تعبّدتهم شهواتُ أنفسهم فهم أبداً فى حيرة وضلال .

فى لحظة من تلك اللحظات ، أغمض الرافعى عينيه وراح يفكر ، وفى رأسه خواطر يموج بعضها فى بعض ؛ ثم فاءت نفسه ، فرفع رأسه وهو يقول : « ربِّ ما أدق حكمتك وأعظم تدبيرك ... ! » وأفاض الله عليه ورفع عن عينيه الغطاء ...

وعاد ينظر إلى الناس يأكل بعضهم بعضاً ، ويسرق بعضهم أقوات بعض ، ويتزاحمون على الحياة فيسارعون إلى الموت ؛ فدمعت عيناه ولكنه كان يبتسم ، وعاد يقول : « حكيم أنت يا رب ! ليتهم وليتنى ... ليتهم يعلمون شيئاً من حكمة الله فى شىء من أغلاط الناس ! ... كل شىء فى هذا الكون العظيم يجرى على قَدَر منك وتدبير حكيم ! »

ثم شرع يؤلف كتابه « المساكين »

كتاب المساكين

أخرج الرافعى كتابه هذا فى سنة ١٩١٧ ، وهو الكتاب الرابع مما ألف فى النثور ، وثانى ما ألف فى أدب الإنشاء ، ويعرِّف به الرافعى فى الصفحة الأولى منه فيقول : هو كتاب « أردتُ به بيان شىء من حكمة الله فى شىء من أغلاط الناس ... »

وقدم له بمقدمة بليغة فى معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنسانى يقول فيها :

« هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مِرْقعةً جديدة ... فقد والله بليت أثواب هذا الفقر وإنها لتنسدل على أركانه مزقاً متهدِّلة يمشى بعضها فى بعض ، وإنه ليلْفقُها بخيوط من الدمع ويمسكها برُقع من الأكباد ويشدها بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل ، وأمل إلى خيبة ، وخيبة إلى هم ؛ وأقبحُ من الفقر ألا يظهر الفقر كاسياً أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية أو المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى الأولين ... »

والكتاب فصول شتى ، ليس له وحدة تربط بين أجزائه ، إلا أنه صور من آلام الإنسانية كثيرة الألوان متعددة الظلال ، تلتقى عندها أنة المريض ، وزفرة العاشق ، ودمعة الجائع ، وصرخة اللهفان المستغيث ؛ فهنا صورة (الشيخ على) الرجل الذى يعيش بطبيعته فوق الحياة وفوق الناس لأنه يعيش فى نعمة الرضا ، وإلى جانبه قصة الغنى الشيخ الذى حسب أنه سيطر على الحياة لأنه ملك المال ، وهذه صاحبته الحسناء الصغيرة التى انتشلها الشيخ بماله من الفقر الجائع فوهب لها المال ولكنه سلبها نعمة الشعور بالحياة ، وهذا ، وهذه ... من صور المساكين الذين يعيشون يحتسون الدموع أو يتطهرون بالدموع .

وأول أمر الرافعى فى تأليف كتاب المساكين أنه كان فى زيارة أصهاره فى (منية جناج) فالتقى هناك الشيخ على ، والشيخ على هذا رجل يعيش وحده

ليس له جيب يمسك درهما ، ولا جسد يمسك ثوباً ، ولا دار تؤيه ، ولا حقل يغل عليه ؛ يجوع فيهبط على أول دار تلقاه يتناول ما يمسك رمقه ، ويدركه النوم فيتوسد ذراعه حيث أدركه النوم من الدار أو الطريق . رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس ، وآمال الحياة . ولقيه الرافعى واستمع إلى خبره، فعرف من فلسفته فلسفة الحياة ، ووجد عنده الحل لكل ما فى نفسه من مشكلات ، فكان هذا الكتاب من وحى الشيخ على الفيلسوف الصامت فى الرافعى الأديب ، واجتمعت له مادة الكتاب فى مجلس واحد لم ينطق فيه أحد بكلمة

ويصف الرافعى الشيخ على فيقول :

« ... هو حليم لنفسه ، غضوب لنفسه ؛ وكذلك هو فى الخفة والوقار ، والضحك والعبوس ، والزهو والانقباض ، وفى كل ضدين منهما لذة وألم ؛ كأنه جزيرة قائمة فى بحر لا يحيط بها إلا الماء، فلا صلة بينهما فى المادة وإن كانت هى فيه؛ فالناس كما هم وهو كما هو يرونه من جفوة الزمان أضعف من أن يصاب بأذى ، ويرى نفسه من دهره أقوى من أن يصيب بأذى؛ ويتحاشونه رأفة ورحمة، ويتحاماهم أنفة واستغناء ؛ ثم إن مسه الأذى من رقيع أو سقيط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه ، فيألم وكأن ألمه مرض طبيعى ، ولا فرق عنده فى هذه الحال بين أن يمغص بطنه بالداء أو يمغص ظهره بالعصا ... ! وهو والدنيا خصمان فى ميدان الحياة، غير أن أمرها مختلف جداً، فلم تقهره الدنيا لأنه لم يطمح إليها ولم يقع فيها، وقهرها هو لأنها لم تظفر به ...

« ... وهو رجل سدت فى وجهه منافذ الجهات الأربع كلها إلا جهة السماء ، فكأنه فى الأرض بطل خيالى رينا من نفسه إحدى خرافات الحياة ، ولكنه مع ذلك يكاد يخرج للدنيا تلك الحقيقة الإلهية التى لا تغذوها مادة الأرض ولا مادة الجسم ، فهى تزدرى كل ما على الأرض من متاع وزينة وزخرف ، وكل ما ردت عليك الغبطة من بسطة فى الجسم أو سعة فى المال أو فضل فى المنزلة ، وكل ما أنت من إقباله على طمع ومن فوته على خوف ...

« ... فهو أجهل الناس فى الدنيا وأجهل الناس بالدنيا ... وأنت إذا سطعتَ له بالجوهرة الكريمة النادرة ، فلا يعدو أن يراها حصاة جميلة تتألق ، وإن هوّلت عليه بألوان الخز والديباج، حسبك مائقاً لم تر قط نضارة البرسيم وألوان الربيع ... »

هذا هو الشيخ على الذى أوحى إلى الرافعى كتاب المساكين ونسب إليه القول فيه وردّه إلى إلهامه ، وهو عنده النموذج الكامل للرجل السعيد والفيلسوف الصحيح

وقد فرغ الرافعى من كتاب المساكين فى سنة ١٩١٧ ؛ وفرغ الشيخ على من دنياه بعد ذلك بقليل ، ولكن روحه ظلت تعمل فى نفس الرافعى وتملى عليه وتلهمه الرأى إلى آخر أيامه بعد ذلك بعشرين سنة ؛ والواقع أن الرافعى كان يؤمن بفلسفة التسليم والرضا فيما لا طاقة له به ، إيماناً كان مادة حياته ونظام عمله . وإيمانه ذاك هو الذى كان يفيض عليه أمارات المرح والسرور حتى فى أعصب أوقاته وأحرج ساعاته ، فكنت لا تراه إلا مبتسماً أبداً أو ضاحكا ضحكة السخرية والاستسلام .

* * *

كتاب المساكين الذى يقول عنه المرحوم أحمد زكى باشا :

« لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير ، وهيجو كما للفرنسيين هيجو ، وجوته كما للألمان جوته » .

... هو كتاب اجتمع على إخراجه سببان : أهوال الحرب التى حطّت على مصر بالجوع والقحط والغلاء ، والشيخ على الجناجى .